تحقيق

ميشال كرم
Michelkaram2@hotmail.com

"الوحش على الجبل" منح علمًا لا أمانًا فخفتت زهوة نتنياهو تحت وقائع الميدان

للمرة الثانية بعد اجتياح 1982، احتلت اسرائيل قلعة الشقيف بعد 44 عاما، في خطوة اعادت الى الواجهة رمزية الموقع الذي يصفه المحتل بـ"الوحش على الجبل". فالقلعة تتربع على منحدر صخري استراتيجي، تشرف على المستوطنات الشمالية وجزء واسع من الجنوب، وتمنح افضلية ميدانية في الرصد والتحكم بمحاور حساسة في التحولات العسكرية

تدمير معالمها وبرجها الرئيسي في العام 1982.

مع تكثيف العمليات الاسرائيلية وتوسع غاراتها الى شمال نهر الليطاني، وسط رفض مطلق لوقف اطلاق نار اعلنته وزارة الخارجية الاميركية في 16 نيسان، ومددت العمل به ثلاث مرات متتالية آخرها لمدة 45 يوما، كانت القرى والبلدات الجنوبية تتعرض الى تدمير ممنهج بما يشبه "الابادة العمرانية" عبر نسفها بعد افراغها من سكانها، وقطع التواصل بين مناطقها الحيوية، ولا سيما الطريق الممتد من المنطقة الحدودية في اتجاه البقاع عبر بلدة دبين الاستراتيجية، ليطال القصف ايضا المستشفيات والطواقم الاسعافية العاملين في انقاذ الجرحى واغاثة المدنيين حتى سقط في صفوفهم نحو 150 مسعفا.

> **استهداف البشر والحجر والذاكرة الجنوبية تحت الركام**

لم يبق الاستهداف محصورا بالبشر والحجر، بل تمدد الى الذاكرة الجماعية والهوية الثقافية، والى مواقع اثرية وحضارية واحياء تراثية، في محاولة لاقتلاع المكان من تاريخه وتحويل المنطقة من مساحة تراث الى مساحة خراب.

ففي القطاع الغربي، لحقت اضرار جسيمة بمقام النبي شمعون وقلعة طوبيا، وفي صور طالت القذائف محيط مواقع تاريخية، لا سيما المناطق المحيطة بالملعب الروماني والمدرج، وهي معالم شاهدة على تعاقب الحضارات الفينيقية والرومانية والبيزنطية. كما لم تسلم قلعة الشقيف ومحيطها من الاعتداءات، وهي التي تحمل ارثا حضاريا وعسكريا ممتدا عبر قرون، مما دفع وزير الثقافة غسان سلامة الى اجراء اتصالات مع نظراء له ومع المنظمات الدولية، لتحييد هذه المناطق لكونها محمية بموجب اتفاقية لاهاي لحماية الممتلكات الثقافية. كما استدعت تحركات ديبلوماسية من الحكومة اللبنانية، وبخاصة من رئيسها نواف سلام، الذي أعلن ان "لا شيء يبرر الاعتداءات المتواصلة على منطقتي صور والنبطية وتدمير معالمهما التاريخية"، في وقت استنكرت بلدية ارنون حيث تقوم قلعة الشقيف، استهداف القلعة، داعية الى حماية هذا المعلم من المزيد من الاضرار.

لم تلق هذه المناشدات آذانا صاغية، في ضوء اصرار إسرائيل على احتلال قلعة الشقيف، بما يعكس الاهمية العسكرية والاستراتيجية التي يوليها جيشها لهذا الموقع التاريخي المطل على واحدة من أكثر المناطق حساسية في الجنوب اللبناني. فالقلعة التي ترتفع نحو 710 أمتار عن سطح البحر، لا تعد مجرد معلم اثري شاهد على تعاقب الحضارات، بل تشكل نقطة اشراف طبيعية على كفرتبنيت وارنون ومرجعيون، وصولا الى قضاء جزين، كما تطل على مساحات واسعة من القطاعين الغربي والشرقي ومنطقة الليطاني، وتمتد رؤيتها نحو شمال فلسطين المحتلة.

تكمن اهمية الشقيف ايضا في انها تشكل، بحكم موقعها، مفتاحا لأي تقدم ميداني نحو النبطية، اذ يصعب على اسرائيل التحرك في اتجاه هذه المدينة من دون احكام قبضتها على هذا الموقع، لتتمكن من السيطرة على النبطية التي لا تقف دلالاتها عند حدودها الجغرافية العسكرية. فالمدينة تحمل رمزية سياسية كبيرة في الوجدان الجنوبي، وتعد من أبرز المراكز المدنية والسياسية في الجنوب، حيث ينظر اليها الاحتلال الاسرائيلي باعتبارها معقلا اساسيا لحزب الله في اكبر مدينة جنوبية، بحيث لا يقرأ احتلال القلعة فقط كخطوة عسكرية بل كرسالة سياسية ورمزية تتجاوز حدود الميدان.

تزامنت عودة القلعة الى دائرة الضوء مع احتلال اسرائيل لها للمرة الثانية، بما اعاد الى الواجهة قيمتها العسكرية التي بقيت حاضرة في معظم المحطات المفصلية التي شهدها جنوب لبنان، منذ ان شيدها الرومان، وجددها الصليبيون ووسعوها وسموها "بوفور" اي الحصن الجميل، مستمدة اسمها "الشقيف" من منحدرها الصخري العالي. بعد الصليبيين، سيطر عليها صلاح الدين الايوبي ثم العثمانيون والفلسطينيون، وصولا الى الاحتلال الاسرائيلي في العام 1982، وانسحابه منها عام 2000، ثم عودته مجددا اليها بعد 26 عاما قبل يومين من بدء الجولة الرابعة للمفاوضات المباشرة بين لبنان واسرائيل.

فالشقيف لم تكن يوما مجرد قلعة اثرية قائمة على مرتفع صخري بالنسبة لكل الذين تعاقبوا عليها للسيطرة على الجنوب، بل شكلت موقعا دفاعيا فرض حضوره في حساباتهم العسكرية. وقد رسخ الامير فخر الدين المعني الثاني هذه الاهمية حين رمم القلعة وجعلها واحدة من قلاع جيشه ومركزا للتموين، مستفيدا من موقعها المشرف على الطرق والمعابر والوديان المحيطة بها، لتتحول لاحقا الى خط دفاعي رئيسي في مواجهة الاطماع والغزوات، ونقطة ارتكاز عسكرية مهمة لا يمكن تجاوزها.

في العصر الحديث، عادت هذه القلعة مجددا الى واجهة الاحداث خلال اجتياح عام 1982، حين تحولت الى أحد أبرز خطوط المواجهة بين القوات الاسرائيلية والمقاومة الفلسطينية، اذ منحها موقعها مكانة عسكرية استثنائية، فهي تطل على مستوطنة المطلة التي تبعد عنها اقل من 4 كيلومترات، بما يتيح رصد حركة الخطوط والامداد بالعين المجردة. كما تشرف على الطيبة ودير سريان والقنطرة، وهي مناطق يتمركز فيها الجيش الاسرائيلي حاليا، مما يفسر الى حد كبير حاجته للسيطرة عليها.

منذ العام 1967، ادرك الفلسطينيون ايضا اهميتها العسكرية، فتمركزت فيها منظمة التحرير وحولتها الى نقطة مراقبة، مستفيدة من ارتفاعها المشرف على مستوطنات الجليل والجولان السوري المحتل، واستخدمتها منصة عسكرية لاطلاق الصواريخ في اتجاه اسرائيل، مما جعلها هدفا دائما للجيش الاسرائيلي الذي حاول السيطرة عليها في آب 1980 عبر انزال جوي، في محاولة لانتزاع الموقع من ايدي المقاتلين الفلسطينيين لحماية المستوطنات الشمالية، غير ان هؤلاء تصدوا للهجوم وتمكنوا من افشاله، لتبقى القلعة واحدة من ابرز النقاط العسكرية المتقدمة في جنوب لبنان.

في الليلة الاولى للاجتياح في 6 حزيران 1982، دفعت اسرائيل بوحدات من لواء غولاني في اتجاه القلعة، في محاولة ◄

اقبية داخل القلعة.

المدخل الرئيسي للقلعة التي اعتمدها بناة الحصن.

بئر لحفظ المياه في احد اقبية القلعة يعكس القدرة على الصمود لفترات طويلة.

نافذة لاطلاق السهام.

لاقتحامها وانهاء وجود عشرات المقاتلين الفلسطينيين الذين كانوا متمركزين داخل القلعة ومحيطها. الا ان المعركة التي استمرت اربعة ايام، شهدت في بداياتها تعثر تقدم القوات الاسرائيلية عند مدخلها، حيث اصطدمت بمقاومة شرسة عطلت اندفاعها وابطأت محاولات السيطرة على الموقع، وتحولت الى واحدة من أعنف المواجهات في تلك المرحلة، بعدما دارت الاشتباكات داخل الخنادق والتحصينات الاسمنتية ومن مسافات قريبة جدا، تكبدت خلالها القوات الاسرائيلية خسائر في صفوف الضباط والجنود، بينهم ثلاثة ضباط قادة في وحدة غولاني.

منذ تلك المعركة، ترسخ اسم الشقيف في الذاكرة العسكرية الاسرائيلية بوصفها "الوحش على الجبل"، في اشارة الى صعوبة اقتحامها وكلفة السيطرة عليها، حيث الطريق المؤدي اليها كان بدوره جزءا من المعركة، بعدما زرعت فيه العبوات الناسفة التي استهدفت المهاجمين خلال فترة تقدمهم لاحتلال القلعة وما بعدها، مما جعل اقتحام "الوحش على الجبل" والوصول اليه مهمة دامية وباهظة الثمن.

بعد نحو شهر على احتلالها، حطت في 7 تموز مروحيات عسكرية اسرائيلية تقل

الامير فخر الدين رسخ اهميتها العسكرية وجعلها قلعة جيشه

رئيس الحكومة الاسرائيلية آنذاك مناحيم بيغن ووزير الدفاع ارييل شارون ورئيس هيئة الاركان العامة رافائيل ايتان، في زيارة ارادتها القيادة استعراضية بعد واحدة من أقسى معارك الاجتياح. غير ان الوفد فوجئ بحجم الخسائر نظرا الى ان من قاتلوا داخل القلعة ومحيطها كان عددهم 33 مقاوما، في مقابل قوة اسرائيلية قدرت بأكثر من ألف ضابط وجندي، مدعومين بالطائرات والدبابات والمدفعية.

هذا التفاوت الهائل في موازين القوى، كشف مجددا القيمة العسكرية لقلعة الشقيف، كحصن طبيعي وعسكري ساعدت تضاريسه الوعرة وتحصيناته وخنادقه المتشابكة في اطالة امد المواجهة. فقد تحولت رغم محدودية عدد المدافعين عنها، الى عقدة ميدانية أربكت التقدم الاسرائيلي وفرضت على جيشه كلفة بشرية ومعنوية باهظة، لتبقى معركة الشقيف واحدة من المحطات التي حفرت اسم "الوحش على الجبل" في الذاكرة العسكرية الاسرائيلية.

تمركزت القوات الاسرائيلية في القلعة ومحيطها على مدى نحو عقدين، وبقيت في حسابات الميدان حتى ايار عام 2000، حين قرر رئيس الوزراء الاسرائيلي آنذاك ايهود باراك الانسحاب من جنوب لبنان تحت ضغط المقاومة اللبنانية وكلفة الاحتلال المتصاعدة.

قبيل الانسحاب اخليت القلعة من الجنود، قبل ان يعمد المحتل الى تفجير الموقع بأطنان من المتفجرات، في مشهد اختصر محاولة طمس معالم موقع عجز عن الخروج منه من دون ان يترك خلفه اثرا من الدمار. لم تكن تلك الاضرار هي الاولى التي تلحق بالشقيف، اذ سبق ان تعرضت لقصف متكرر قبل احتلالها، مما ادى الى تصدع جدرانها وتداعي اجزاء من بنيتها التاريخية وتدمير بعض معالمها، لا سيما برجها الرئيسي وجدرانها الخارجية.

باشرت مديرية الاثار في وزارة الثقافة اعادة ترميمها وتأهيلها عام 2011، بدعم من الصندوق الكويتي للتنمية. استغرقت

الورشة 4 سنوات قبل ان يعاد فتحها امام الزوار مطلع عام 2015، وسمح تأهيلها باكتشاف العديد من الاقبية والجدران والقاعات غير المعروفة سابقا في خرائط القلعة، كما ساعد بالكشف مجددا على الخندق الصخري المطمور منذ سنوات والذي يصل الى مجرى نهر الليطاني.

لكن الاحتلال الاسرائيلي عاد الى ما تصفه الادبيات العبرية بـ "الوحش على الجبل"، رافعا علمه وراية لواء غولاني فوق القلعة، بعدما دخلها بقوة برية كبيرة غير مسبوقة، مستفيدا من خبرته الطويلة في التعامل مع هذا الموقع، سواء عبر سنوات قصفه أو محاولات اقتحامه واحتلاله. لم تقتصر التشكيلة المشاركة على لواء غولاني، بل ضمت ايضا اللواء السابع ولواء جفعاتي ولواء النيران والوحدة المتعددة الابعاد التي تعمل تحت قيادة الفرقة 36، بإسناد واسع من الطائرات الحربية والمسيّرات والمدفعية والدبابات، الى ان تمكنت من السيطرة على الموقع.

بهذا المعنى، لم يكن رفع العلم فوق القلعة مجرد مشهد ميداني، بل رسالة سياسية وعسكرية جاءت في توقيت بالغ الحساسية، عشية مسار المفاوضات اللبنانية - الاسرائيلية، ووسط انتهاك واضح للقرارات والمواثيق الدولية التي تلزم قوات الاحتلال حماية المعالم الاثرية والتراثية، وعدم تحويلها الى ساحات اشتباك او منصات عسكرية.

لكن بعدما احتلت اسرائيل القلعة مجددا، برز سؤال لا يمكن تجاوزه، عما إذا كانت هذه العودة الى "الوحش على الجبل" استحقت كل هذا الحشد العسكري والسياسي؟ خصوصا وان المشهد الميداني لم يمنح تل ابيب صورة النصر التي ارادتها. فالطائرات المسيّرة المفخخة التي يطلقها

الشقيف 1982 أربكت الجنرالات وحولت تفوقهم الى تساؤلات

ثقوب في الجدار الخارجي بقيت شاهدة على المواجهات العسكرية.

حزب الله لم تتوقف، بل ارتفعت وتيرتها في اتجاه المستوطنات الشمالية الاسرائيلية، وامتد مداها الى حيفا وعكا، في مؤشر الى ان السيطرة على القلعة لم ينجح في اسكات جبهة الشمال أو تحييد مصادر التهديد مع استخدام المسيّرات المتطورة.

واصلت المقاومة استهداف الآليات والجنود الاسرائيليين بسرب من الطائرات الانقضاضية من نوع "ابابيل" وبالرشقات الصاروخية في محيط القلعة نفسها، وصعدت من حجم النيران ونوعية الاهداف، في مشهد اعاد التأكيد ان احتلال الموقع لا يعني بالضرورة السيطرة على مسار المعركة. فالقلعة التي ارادها نتنياهو عنوانا لإنجاز عسكري، تحولت الى ساحة استنزاف مفتوحة، تكشف محدودية المكسب وتعيد طرح كلفة الاحتلال. وبذلك، خفتت زهوة الانتصار التي حاول نتنياهو تسويقه من فوق القلعة، بعدما اثبتت الوقائع ان "الوحش على الجبل" لم يمنح اسرائيل امنا اضافيا، بل اعادها الى ذاكرة ثقيلة من المواجهات.

هذا "الحصن الجميل" استهوى جيوشا تعاقبت عليه عبر العصور، من الرومان الى الصليبيين، ومن صلاح الدين الايوبي الى فخر الدين المعني الثاني، ثم العثمانيين، وصولا الى الفلسطينيين والإسرائيليين. هؤلاء جميعهم اختبروا على حجارة هذه القلعة انواعا شتى من ادوات الحرب واساليبها، من الاقواس والسهام والرماح، الى المنجنيق والسيوف والخناجر، ومن بنادق أبو فتيلة الى البنادق الهجومية الخفيفة ومدافع القلاع، فإلى الطائرات والمسيّرات على انواعها، فتداخلت التكنولوجيا العسكرية الحديثة مع القيمة الجغرافية والاستراتيجية للحصن.

وهكذا ظل الشقيف، رغم اسمه الجميل، صلبا ومهيبا في المواجهات، عصيا على النسيان، حاملا في الذاكرة اللبنانية رمزا للصمود والتحدي، وفي الذاكرة الاسرائيلية رمزا يختزن الرهبة والخشية من "الوحش على الجبل".